

لقصدي في الطب القديم

الدكتور عبداللطيف البديوي

من العسير أن يحدد زمان اجراء أول عملية قصد ، أو من أجزاها بصورها الأولى ، ولكن ما ورد في السير يدل على أن الانسان عرف منذ أقدم العصور أن الدم هو السائل الثمين في الجسم وبه ترتبط الحياة بمختلف الصور ، وفقدانه بغزارة قد يؤدي الى الموت ، وعرف أيضاً أن هذا السائل عرضة لتغيرات في نوعه وكميته ، وأن مختلف الأمراض تؤثر عليه بوجه أو بآخر . ولا بد أنه قد جرت محاولات في بداية التطور الحضاري للانسان تهدف كسب النفع من استخراج كمية من هذا الدم بالقصد أو بغيره ، أملاً في الشفاء من مرض ، أو دفماً لبلاء يعتقد أن هذا الاجراء ناجع لتجنبه .

فلقد جاء في تاريخ المصريين القدماء أن فرعون مرض وفقد وعيه من نزف في دماغه ، فاستدعت زوجته سراً أحد مشاهير الأطباء آنذاك ، ليخرج هذا الدم من داخل رأسه ، فأخبرها بعد أن أجرى الكشف عليه أن الأمل واه في شفاء من مثل حالته وبهذه العملية . ولما كان لزاماً أن يقتل من يعالج فرعون الملك ولا يشفيه ، فقد طلبت الزوجة من الطبيب إجراء العملية في السر وفي وقت متأخر من الليل عند خفة حدة المراقبة عليه ، وقد أجريت العملية فعلاً ومات فرعون ، وخفي أمر الطبيب . ومما يكن من وصف للملابسات آنذاك ، فإن ما ورد على لسان الطبيب يدل على أن هناك تقدماً كبيراً في التطبيب ، ليكون

بإمكان الجراثمي أن يفرق بين ما ينفع في النزف الدماغى ، مما لا ينفع .

وجاء أيضاً في كتاب الأمراض العسرة لجالينوس أنه كان ماراً بمدينة رومية إذا هو برجل قد حلق حوله جماعة من السفهاء وهو يقول أنا رجل من أهل « حلب » لقيت جالينوس وعلمنى علومه أجمع ، وهذا دواء ينفع من الدود فى الأضراس ، وكان الخبيث قد أعد بندقاً معمولاً من القار والقطران وكان يضعها على الحجر ويبخر بها فم الذى به الأضراس المدودة بزعمه ، فلا يجد بدأ من غلق عينيه فاذا أغلقها دس فى فمه دوداً قد أعدها فى حرق ، ثم يخرجها من فم صاحب الضرس ، فلما فعل ذلك ألقى اليه السفهاء بما معهم ثم تجاوز ذلك حتى قطع العروق على غير مفاصل (فصد بغير دراية) فلما رأيت ذلك أبرزت وجهي للناس وقلت أنا جالينوس وهذا سفيه (مجرم كذاب) ثم حذرت منه وأستعدت عليه السلطان فبطله ، ولذلك ألفت كتاباً فى أصحاب الخيل .

وجاء أيضاً أن جالينوس مرض فى كبده ، فرأى فى منامه هاتقاً يقول له أفصد فى ذراعك الأيمن فتبرأ ، فلما صحا من النوم فصد فى ذراعه الأيمن فبرأ . ولما كان جالينوس آية زمانه فى الحكمة ، فقد ذهب ما فعله مذهباً فى تطبيب آفات الكبد ، ولم يقتصر القصد على هذا المرض بل تعداه ، فحرب لمن به داء فى الكبد ، ولمن به داء بغير كبده ، وجرب الذراع الأيمن وكذلك الذراع الأيسر وجرب عرق الصدغ وعروق الساقين وكل مواضع الأوردة الظاهرة ، وألف جالينوس قبل وفاته كتاباً فى القصد والحجامة .

وقيل إن افلاطون خلف من بعد وفاته ستة من تلاميذه من أولاده وأقربائه وهم بيرونوس وأفرده بالحكم على الأمراض وفورنوس وأفرده بالتدبير للأبدان « وفورلوس » وأفرده للقصد والكي « وثافروس » وأفرده بعلاج الخراجات ، « وسرجس » وأفرده بعلاج العين « وفانيس » وأفرده بحجر العظام المكسورة وإصلاح الخلوعة .

وما جاء لجالينوس و افلاطون ، جاء ما يمثله لأيبوقراط فقد كتب مقالات عديدة وكتباً

في الطب بينها كتاب في الفصد والحجامة .

ودارت عجلة الزمن وحذا اللاحقون من المتطببين حذو السابقين ، وتناقلت الأجيال الخبرة والتجربة ، فأصبح علم الفصد وفنه واسعاً ، وعرف في أي موضع من البدن يفضل الفصد ، وفي أي مرض ينفع ولا يضر ، وفي أي عمر يجب أن يحرم ، وكذلك طرق الفصد ومداهاتم كيف يبرى موضع الفصد أو يتجنب اختلاطاته .

ومن الطبيعي أن تكون هذه المعلومات ، في الأزمان التي تلت عصور رواد الطبابة ، مختلفة أشد الاختلاف ، تبعاً لانتشار الحضارة في بقعة من بقاع الأرض أو في دولة من الدول ، ولم تخل منها الكتب الطبية في الدولة الفارسية ، وفي الهند ، وعند الروم .

وكذلك جاء ذكر الفصد في التطبيب في الجاهلية وفي صدر الإسلام وفي العهد الأموي ، ولكن ازدهار الحضارة في العصر العباسي ، ونزوح جماعة من خيرة الأطباء في مدرسة « جندي سابور » إلى بغداد حيث قاموا في خدمة خلفاء بني العباس ونظراً لما عرف به هؤلاء الملوك والخلفاء من عناية بالطبابة ، ولكثرة ما ألف وترجم فيها من الكتب اليونانية والفارسية والهندية ، وما صاحبه من فتح للمشفى ، وتوفير للعقاقير ، كل هذا جعل من التطبيب حرفة مقدسة سامية ، يختص فيها من يتوفر على شروط معينة ، بعد فحص دقيق ورقابة أدق .

وحضى الفصد بنصيب واسع من التطبيق بين علوم التطبيب في العصر العباسي ، فلقد ذكر أن الرشيد كان يفصد مرتين في السنة وبأوقات محددة مسبقة ، وكان « جبرائيل بن بختيشوع » طبيب الرشيد يتقاضى من الخليفة ١٠٠٠٠٠ ر. ١٠٠ ألف درهم عن فصده مرتين في العام الواحد ، ومن أصحاب الرشيد ٤٠٠٠٠ ر. ٤٠٠ ألف درهم عن الفصد والدواء في السنة ، وليس أبلغ من هذه الأرقام وهي نصف مليون درهم ما يدخل طبيباً واحداً من إجراء جراحي واحد ليبدل على ما كان يعطى لهذا الإجراء من أهمية .

وجاء أيضاً أنه عرض للوزير « يحيى بن القاسم المغربي » قولنج صعب أقام لأجله في الحمام واحتقن بعدة حقن وشرب عدة شربات فلم ير صلاحاً ، فأنفذ رسولاً إلى المتطبب « صاعد بن بشر بن عبدوس » فلما رآه على هذه الحال استدعى فأصداً فقصده ، وأخرج له دماً كثيراً المقدّر ، وسقاه ماء البزور ولعاباً « وسكنجبيناً » ونقله من حجرة الحمام إلى الخيش فنام وقام عدة مجالس ففضل الله عليه بالعافية .

وفي ذكر المتطبب « ديلم » أن « المعتمد على الله » وهو « أحمد بن المتوكل » أراد أن يفتصد فقال « للحسن بن مخلد » اكتب لي جميع من في خدمتنا من الأطباء حتى أتقدم بأن تصل كل واحد منهم على قدره . فكتب الأسماء وأدخل فيها اسم « ديلم » فخرج له ألف دينار .

ومثلاً آخر على شيوخ الفصد هو أن رئاسة الأطباء قد فوضت يوماً لأمين الدولة بن التلميز فجاءه شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينه ، فأكرمه أمين الدولة ، ولم يكن عند الشيخ علم بالصناعة إلا التظاهر بها ، فلم يشارك الجماعة فيما يبحثون . فلما سئل بعد انفضاض المجلس عما عنده من الصناعة انكشف جهله ورجا رئيس الأطباء ألا يفضحه فقال أمين الدولة على شريطة ألا تهجم على مريض بما عمله ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض فقال الشيخ هذا مذهبي ما تعديت السكنجبين والجلاب .

وفي هذه الأمثلة ما يعني أن الفصد قد استعمل كثيراً ، وأحياناً في غير محله قصداً أو جهلاً ولعل شراً ما حدث هو انتقال اجراء الفصد لأيدي المدعين ومن لم يكن لهم من أنفسهم رادع عن سوء ففصدوا من دون مبرر إلا طمعاً في مال أو تنفيذاً لظلم أو مراقبة لقسوة أو تعذيب .

وإثباتاً لما وصل إليه المستوى في الصناعة عن الفصد آنذاك نذكر ما جاء في كتاب العمدة لابن القف عن هذا الموضوع (الفصد) :

(الفصد هو تفرق اتصال إرادي خاص بالأوردة بآلة مخصوصة ، وفصد قيل ارادي للتمييز ، وبالأوردة للتفريق عن بط الخراجات بالصناعة والتي هي بسطح البدن ، وبآلة مخصوصة هي (الرائشة) تمييزاً له عن فتح العروق بالأدوية كاحداث الرعافة بالأدوية المرغفة). وجاء أيضاً ان الفصد يستعمل في ثلاثة أمور أحدها عند زيادة الأخلاط في الكمية مع حفظ نسبتها ، وثانيها عند زيادة كمية الدم فقط ، والثالثة عند زيادة الكيفية إلى جانب الحرارة وهذا قليل الاستعمال .

والفصد شروط من جهة الفاصد والمفتصد ، اما الأول فيجب أن يكون عارفاً بالتشريح ليعرف مسالك الأوردة وأوضاعها وما يجاورها وأن لا يفصد في مكان مظلم ، ليدرك العرق ويعرف كيف يضع الموضع وأن يتعاهد تنقية دماغه ، ثم بصره بالأ كحال إن احتاج إليها وأن لا يقدم على فصد سبي ولا على شيخ كبير ولا على طامث إلا بأذن أقاربها ولا على مملوك إلا بأذن مولاه ، ولا على محبوس إلا بأذن ولي أمره ، ولا على من كانت معدته ضعيفة وكذلك كبده ، ولا على من كان مستعداً لانطلاق البطن والأمراض رطبة ساذجة أو مادية ، وان يوسع الفصد في زمان الشتاء وعند كون السمنة مستحصفة والمواد غليظة ، ويضيقه في الصيف وعند كون السمنة متخلخلة والأخلاط رقيقة ، وان يكون مبضعه نقياً من الصدأ والنمش ، وان يطيل زمان حبسه للعرق ، وأن يديم تمريح الفصد ، ويأمر المفصود بحسك شيء ثقيل ليظهر العرق وأن يفصد العروق المفصلية طويلاً إن أراد تأخر التعامها ، وعرفنا أن أريد تثنيها بسرعة ، وان يشد العضو عن الفصد بعصابة معتدلة العرض دقيقة وأن لا ينظر الى وجه امرأة عند فصدها ولا يطيل زمان حبس عضدها وزندها ، وتكون معه أدوية لقطع الدم مهينة ، وان يكون ديناً في دينه ظاهراً في ذيله .

أما من جهة المفتصد فهناك نوعان من الفصد ضروري واختياري ، فالأول يستعمل متى دعت الحاجة ولا يراعى فيه سوى الاحتمال ومقدار المادة ، فالطفل يحجم ولا يفصد ،

والثاني تراعى فيه شروط وهو ان يكون بعد تمام الهضم ودفق الفضلات، ويحذر عند خلل المعدة وعقيب التخمة ، وعقيب الجماع وفيمن كان ضعيف الكبد وفي السمين سمناً شحمياً وفي كثير الصوم ، ومن كان مكدوراً وفي وقت الغضب ، وفي وقت الحمل وجريان الطمث . والعروق المنصودة على نوعين أوردة وشرابين وفي فصد الشرايين خطر لعسر التحامها ودوام حركتها ورقة دمها وصلابة جرمها ولأن الدم الذي تحويه الغالب عليه الجوهر الروحي لا المادة المريضة . أما الأوردة فقد حصرت في أربعة وثلاثين ، في الرأس منها اثنا عشر وفي اليدين اثنا عشر وعلى البطن عرقان وفي الرجلين ثمانية عروق ، في كل رجل أربعة . إن هذا الذي كتب قبل مئات السنين لم يتغير إلا فيما يتعلق بالأخلاق حيث أ كسب العلم الحديث تفسيراً أدق لموجبات الفصد وسماتها بما يوازي التقدم والتطور .

فالفصد نافع في جميع حالات خذلان القلب الأيسر الحادة ، وتعنى وذمة الرئة ، وربو القلب ، وعسر النفس النبوي وكذلك ينفع الفصد في عسدم كفاءة القلب الأيمن ، كما في التهاب القصبات المزمن المصحوب بتوسع القلب ، ولا يجوز إجراؤه فيمن به إغماء من ضد عصبي ، أو في فقر الدم ، أو في الحضرال ، أو من بهم تصلب الشرايين أو نزف في الدماغ . وما عدا هذا فكل ما قيل عن شروط الفاصد والمفتصد لم تزل كما هي ، بل ربما كانت كذلك منذ أقدم الأزمان وستدوم كذلك ما دام الإنسان في جوهره ، كما خلق أول وما دام الدم هو إكسيد الحياة الذي لن تدوم بدونه .

عبد اللطيف البدرى

المصادر :

- (١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل .
- (٢) صيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .
- (٣) تاريخ الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الغفطي .
- (٤) الفهرست لابن النديم .
- (٥) كتاب العدة في الجراحة لابن القف .
- (٦) تذكرة الحكيم لداود الانطاكي .